جامعة بيروت الإسلامية
كلية الشريعة
www.biu.edu.lb

الطلبة بين الماضي والحاضر

الشباب صفوة الناس، وأمل الشيوخ، على أيديهم ينهض المجتمع من كبوته، وبسواعدهم يبنى الوطن، وفيهم الأمل في الإصلاح.

نظرت إلى شباب الصدر الأول؛ فرأيت أيديهم تتعاون في البنيان، وقلوبهم عامرة بالإيمان، حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان؛ فكانوا بحق من الراشدين.

نشروا الفضيلة، وبنوا مجتمعاً متحاباً، متناصحاً، متناصراً. أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وآمنوا بالله؛ فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

تربى على أيديهم قوم عرفوا الحق ونصروه ونشروه، ووقفوا إلى جانبه، فعلت راية الإسلام خفّاقة، وعاش الخلق في ظله ناعمين آمنين.

ومضى الناس في أمن وأمان، فتفرغوا لطلب العلم ونشره، فبنوا حضارة تشهد بصدقهم وعدلهم وعلمهم. ومن يدرس تاريخ العلوم عند العرب يعلم يقيناً أن الحضارة الإسلامية أصل وأساس ما بعدها، عنها تفرعت، وإليها رجعت، وعليها اعتمدت؛ ولولاها ما كانت. ثم كانت الحروب الصليبية، فشغلت الناس عن العلم والعمل، وألهتهم بخلافات لا فائدة منها، ولا ثمرة لها.

وبعد طرد الصليبيين عاش الناس على هامش الحياة، واشتغلوا بالشروح والمختصرات؛ وإن أردت دليلاً فمقدمة ابن الصلاح وغيرها مما اختصره بعضهم، وشرح المختصر آخر، ونظم الشرح ثالث. وهكذا التفسير يدور على كتابين: كشاف الزمخشري، وجامع الطبري. فكل من جاء بعدهما أخذ عنهما، ورد عليهما. إلا أن الأكثر منقول والقليل مبتكر. ثم نامت الأمة نومة أهل الكهف، فلم تستيقظ إلا مع مطلع القرن الماضي. فرأت أن الغرب أخذ

حضارتها وعلومها، ونسبها إلى نفسه، فنشأت الثورة الصناعية واستخدمت الآلة، واخترعوا الأسلحة المدمرة، وألغو الخلافة. واستعمروا البلاد، وقهروا العباد، ونشأت المذاهب المختلفة، فحاكى المسلمون في الشرق الصليبية في الغرب، فعاشوا على أمجاد الماضي دون أن يعملوا لمستقبل زاهر على أساس من العلم والإيمان.

فذهبت أعمالهم هباءً منثوراً في الجيل الأول؛ لكن سرعان ما تنبه الجيل الثاني، فألبست الأفكار الغربية والشرقية الإسلام؛ فكانت اشتراكية الإسلام وما أشبهها والبنوك الإسلامية، وأمور أخرى تصدى الصليبيون لها، فحاربوها وأبطلوها، فانتشر الجهل والفوضى في المجتمع المسلم ما كان له أثر على الحياة في الجيل الثاني والثالث، ما أدى إلى نهضة علمية، وحرص على طلب العلم، وظهر طائفة عملوا لنشر العلم، وغرسوا حبه في القلوب؛ لأنهم أدركوا أن النهضة لا تكون إلا به، لذلك كان جيلنا حريصاً على طلبه، باذلاً النفس والنفيس في تحصيله، فلما ظهرت ثورة المعلوماتية، ثبطت الهمة، وجعلت الطلبة يغفلون عن طلب العلم، ويتلهون بما لا فائدة فيه، ولا ثمرة له، فنشأ جيل غافل غير مبالٍ، يؤجل كل شيء، ولا يبالي إلا بما يتوهمه مصلحة.

وقفت بين الطلبة أفكر؛ لماذا وصلنا إلى هذا الدرك: جهل وتخلُّف، وفساد وكسل في جميع الأمور: في السياسة، والحكم، في الفكر والاقتصاد، في العلم والتعلم، في الثقافة والعقيدة، في العلاقات الأسرية والاجتماعية، في المعاملات الخاصة والعامة.

بالأمس كان الطالب ينتظر أستاذه ساعات ويصبر عليه؛ ليتعلم مسألة، أو يقرأ عليه، أو يستفسر منه.

واليوم يسجل الطالب مادة في الوقت وقبل الامتحان يأتي لينسحب ويسترد ما دفع، وربما دفع عنه غيره.

بالأمس كان الطالب يحضر إلى الجامعة مبكراً، يحضر المحاضرات، ويسجل الملاحظات، والجواب عن التساؤلات، بجد لا يعرف التعب، ولا يطرأ عليه ملل.

واليوم التأخر حليفه، والكسل جليسه، والتعب رفيقه، والغفلة والإهمال أنيسه، يتأخر في التسجيل، وفي حضور الدروس، وفي المراجعة، وفي الامتحان لسان حاله: لكل تأجيل حيلة.

بالأمس كان الطالب إذا غاب عن مادة رسب فيها، وربما أعاد السنة من أجل مادة أو مادتين.

واليوم نجهز له القاعة والأسئلة والمراقبين، وننتظر تشريفه، ولا يحضر ولا يذكر سبباً، اللهم إلا إذا طلب إعادة المبالغ التي دفع فيعتذر بأعذار واهية.

وهنا أسجلها كلمة واقعية أني وصلت إلى هذا السن ولم أتغيب عن موعد؛ ولو لم أكن في كامل قواي.

وهذا علمني أن لا نهضة، ولا نجاح، ولا عزة، ولا استقرار إلا بالعلم، طلبه شرف، وحمله أمانة، ونشره فضيلة، والسعي إليه عز.

فاللهم وفقنا.

بيروت في ١٤٤٠/١٠/١٤هـ
و ٢٠١٩/٦/١٧م

عميد كلية الشريعة

الشيخ أ. د. أنس جميل طبارة